الفصل السابع

الأمويون

الحسن — تنازله — معاوية — اغتصاب الخلافة — النزاع بين القبائل بنو مضر — بنو حمير أو اليمانيون — تأثير النزاع بين القبائل على الإسلام — توسع الإمبراطورية — وفاة معاوية — يزيد — الحسين — موقعة كربلاء — الثورة فى الحجاز — انتصار جيش الشام فى الحرة — نهب المدينة — موت يزيد — معاوية الثانى — عبد الله بن الزبير — مبايعة أهل الحجاز

الحسن (٤٠ هـ) ٦٦١ م

انتخب الحسن أكبر أبناء على ، للخلافة انتخابا عاما من جميع أهل الكوفة وملحقاتها ؛ بيد أن عدم استقرار الشعب المتقلب الأهواء ، الذى حطم آمال الأب أدى بالابن إلى التنازل السريع عن الحكم ؛ وذلك أن الخليفة الجديد لم يكد يتولى منصب الخلافة حتى زحف معاوية على العراق ، فاضطر الحسن إلى أن يدخل ميدان القتال ، قبل أن يدعم مركزه ، أو ينظم الإدارة التى اضطربت بموت أبيه . فسير قوة تحت إمرة قيس لصد هجمات جيش الشام ، وأسرع هو بالقوة الرئيسية إلى المدائن . وحدث أن أشيع كذبا بين جنوده سقوط « قيس » فى حومة الوغى ، وانهزام جيشه ؛ فتمرد جنود الخليفة الشاب ؛ وانتهبوا سرادقه ورحله ؛ وفكروا حتى فى القبض عليه وتسليمه إلى معاوية ؛ فيئس الحسن مما ناله على أيديهم وارتحل إلى الكوفة مصمما على التنازل عن الخلافة ؛ وقد حمله غدر مؤازريه العراقيين ، الذين أسرفوا له فى الوعود و برهنوا على نكث العهود على أن يعير اقتراحات معاوية أذنا صاغية . وأدت المفاوضات التى دارت بينهما إلى عقد الصلح ؛ على أن تكون الإمامة لمعاوية ما كان حيا ؛ فإذا ما مات فالأمر للحسين أصغر أبناء على ؛ و بعد تنازله انصرف راجعا مع أهل بيته إلى

تنازل الحسن عن الخلافة

المدينة ؛ غير أنه لم يستمتع طويلا بالراتب الذى ضمنته له معاهدة الصلح إذ مات مسموما بعد بضع سنين بتحريض من يزيد بن معاوية .

معاوية

وبتنازل « الحسن » أصبح « معاوية » الحاكم الحقيقى للمسلمين ؛ وانتقل مركز الحكومة التى أسسها « على » فى الكوفة إلى دمشق حيث أحاط معاوية نفسه بأبهة الفرس والرومان ؛ وعمد إلى الخنجر والسم للقضاء بهما على أعدائه الألداء وأصدقائه الذين لم تكن لتلين لهم قناة دون أن تحول أوشاج الدم والتفانى فى خدمة الإسلام إلى ذلك المصير المحزن . ومن ضمن الذين لاقوا حتفهم بسبب الطموح أو الاختلاف فى الرأى « عبد الرحمن » ابن فاتح الشام العظيم [١] الذى كانت شهرته العظيمة فى تلك البلاد والتقدير الذى ناله من مفكرى المسلمين باعثين على اغتياله . ويوجز لنا كاتب إنكليزى [٢] محايد أخلاق معاوية والظروف التى ساعدته على النجاح فى قوله : « كان الخليفة الأموى الأول ذكى الفؤاد قاسى القلب لايحجم عن القتل فى سبيل توطيد ملكه ؛ كذلك كان الاغتيال وسيلته الوحيدة لإزاحة أعدائه ؛ وهو الذى حرض على تسميم ابن بنت الرسول ؛ وعلى هذا النمط لاقى الأشتر النخعى مالك بن الحارث أحد قواد على الأبطال حتفه » .

ولكى يضمن « معاوية » الخلافة لابنه يزيد لم يتردد قط فى نكث العهود مع الحسين بن على . ومع ذلك فإنا نرى هذا العربى البعيد النظر يحكم دولة المسلمين ويحصر الخلافة فى أسرته ٩٠ سنة ؛ ولا نستطيع أن ننسب هذا الشذوذ إلا لعاملين أمكن التوصل إليهما خلال هذا البحث وهما : أن المسلم الشديد الورع يرى أنه لايستطيع القيام بالشعائر الدينية — كما ينبغى — إلا إذا نبذ

---

(١) عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

(٢) أوسبرن « الإسلام فى ظل حكم العرب » .

التدخل فى الأمور الدنيوية جانبا ؛ أما السبب الثانى والأهم فهو الروح القبلية المتأصلة فى قلوب العرب .

وهكذا نجد غزاة آسيا وفاتحى أفريقيا الشمالية ومدوخى أسبانيا لا يعجزون عن السمو إلى مستوى مركزهم العالمى فحسب ؛ بل نراهم أيضاً فى وسط العظمة التى يرفلون فى حللها يحتفظون بنزعاتهم المتباينة وتنافسهم على أشد ما يكون التنافس والتباغض والنزاع المعروف عن أهل الصحراء ، وعلى الجملة فقد شرعوا ثانية يذكون أوار العداء ويؤججون أجيج البغضاء فى ميدان أوسع ومسرح أكبر .

تأثير خلافة بنى أمية فى الإسلام

لم ينجم عن تولى الأمويين دفة الحكم تغيير معالم الخلافة فحسب بل أدى أيضاً إلى قلب المبدإ السائد وخلق عوامل جديدة أثرت تأثيراً عظيما على مصاير تلك الإمبراطورية وعلى تطور شعبها . ولكى ندرك هذه الظروف تمام الإدراك ونلم بمجرى التاريخ يجب أن نستعرض بإيجاز وضع القبائل العربية المختلفة فى مواطنها وعلاقاتها الواحدة بالأخرى . فلو طرحنا جانباً الحروب التى يرجع أصلها إلى التباغض الدينى أو إلى الخلاف فى المبادئ الأساسية كالكفاح بين الديمقراطية والأتوقراطية ، أو بين الحرية الشخصية وبين الاستبداد الإقطاعى ، لما رأينا فى آسيا وأوروبا ولا بين المسيحيين والمسلمين سبباً أدى إلى التفرقة — سواء بين طوائف الشعب الواحد أو بين الشعوب المختلفة وإقحامهم فى حروب دموية مهلكة — مثل ذلك العداء العنصرى الذى يلقى ظلا قاتماً على الأجيال وتتضاءل دونه الثورات الدينية والاجتماعية والسياسة .

بنو حمير

كان يستوطن بلاد العرب فى حياة النبى (صلى الله عليه وسلم) شعب ينتسب إلى قبيلتين مختلفتين تنتسب إحداها إلى قحطان والأخرى إلى إسمعيل ابن إبراهيم ، وكان منشأ الأولى اليمن وموطن الثانية الحجاز ، وأطلق على القحطانيين فيما بعد اسم الحميريين نسبة إلى حمير أحد أولاد عبد شمس وإن كان مؤرخو العرب يطلقون عليهم اسم اليمنيين نسبة إلى موطنهم الأصلى .

أما القبيلة التى استوطنت مأرب (سبأ) عاصمة اليمن تحت سلطان ملوك بنى حمير فاسمها بنو أسد من أولاد قحطان ، ويظهر أن بنى أسد كانت قد ارتحلت إلى الشمال فى القرن الثانى الميلادى وأجلت القبائل الأخرى عن مواقعها ، ثم استقر فرع منها فى « بطن مر » على مقربة من مكة وأطلق عليه اسم قضاعة ، وكان هؤلاء يقيمون فى ذلك الموضع عند ظهور النبى ؛ كما نزل فرع آخر من هذه القبيلة فى يثرب حيث انقسم بمضى الزمن إلى عشيرتين هما الأوس والخزرج ، وارتحل آخرون إلى سوريا والعراق ؛ فأطلق على الذين استوطنوا جانب الشام اسم بنى غسان (الغساسنة) ؛ والذين سكنوا أطراف العراق اسم بنى كلب ؛ كذلك نزل فرع آخر بهمدان بينما ولى عدد كبير منهم وجهه شرقا ونزل بولاية عمان على سواحل الخليج الفارسى .

ذلك هو الوضع الذى كان عليه الحميريون إبان بعث الرسول صلى الله عليه وسلم .

المضريون

كذلك يطلق أحياناً على القبائل الإسماعيلية اسم بنى معد[1] ، ولكنهم يسمون غالباً ببنى مضر نسبة إلى مضر حفيد معد ؛ وسوف نطلق عليهم فيما يلى من فصول الكتاب اسم المضريين ، وإن كان المؤرخون العرب يستعيضون عنه بأسماء البطون كقريش وقيس وبكر وتغلب وتميم . أما قريش فقد سكنوا مكة وضواحيها ، وانتشرت البطون الأخرى فى أنحاء الحجاز (ما عدا يثرب) وأواسط بلاد العرب .

العداء والتنافس بين حمير ومضر

وقد نشأ بين هذين الشعبين بنى حمير وبنى مضر عداء شديد لا يدرك كنهه ومداه من ينظر إلى هذا الموضوع من وجهة نظر التاريخ الأوربية ؛ فكان اللسان الحميرى وهو مزيج من اصطلاحات سامية وأخرى محلية قد استعيض عنه قبل ظهور النبى (ص) بزمن طويل باللغة العربية المصفاة وهى لغة

(١) مضر هو ابن معد بن عدنان حفيد إسماعيل عليه السلام .

بنى مضر التى نالت أرجحية أدبية ، وأخذ العرب فى كافة أنحاء شبه الجزيرة يتكلمونها مع اختلاف بسيط فى اللهجة والجرس ، ومع أن عادتهم وأخلاقهم ومناحى تفكيرهم وأذواقهم كانت متشابهة ، إلا أنه كان ثمة فرق واضح بين القبيلتين ، فإذا ما استقصينا أسباب ذلك الفرق وجدنا أن بنى حمير كانوا قد بلغوا شأواً عظيما فى المدنية قبل بزوغ فجر الإسلام بعدة قرون ؛ فكانوا أينما حلوا يؤسسون لهم حكومة منظمة وإن كانت بدائية ، غير أنها كانت على كل حال منظمة تنظيما كافياً لأغراض الحياة المدنية العادية ، وكانوا فوق ذلك يعرفون فن الكتابة ، كما كان معظمهم يزاول مهنة الزراعة .

أما قبيلة مضر فكانت منذ زمن « قصى » باستثناء قريش بدوية رحالة وكان كل بطن من بطونها منعزلا الواحد عن الآخر ، فتباينت نزعاتها وتباعدت مصالحها ، وفوق ذلك كان كل بطن منها ينتخب رئيسه بطريقة الاقتراع ؛ فلا جرم أن يؤدى هذا التباعد بطبيعة الحال إلى تفرق كلمتهم وخضوعهم إلى سلطان بنى حمير . ولكنهم على الرغم من الحروب الشعواء التى كانوا يشنونها دفاعاً عن حريتهم المثلومة واستقلالهم المفقود ، رزحوا تحت سلطان الحميريين وأخذوا يدفعون لهم الجزية حتى القرن الخامس الميلادى . وقد أثار ذلك النزاع المتواصل بين حمير ومضر فى سبيل التفوق من جهة ، ونيل الاستقلال من الجهة الأخرى عاطفة جامحة من الحسد والبغضاء فى قلوب الفريقين ، وزاد فى سعيرها قصائد شعرائهما الحماسية التى كانوا يشيدون فيها بأيام الحروب والسلطان ، كفوز كندة على بنى تميم ، واكتساح قيس لبنى أسد . ولما ظهر الإسلام بدأت تعاليمه تقضى على ذلك العداء القبلى ، وتلطف من حدة تلك القصائد النارية .

ولو عاش الرسول مدة أطول لصهرت تعاليمه وشخصيته الفذة تلك القبائل فى شعب متجانس ، ولا نعتقد أن عشر السنوات — مدة الرسالة — كانت كافية للقضاء على هذا الحقد المؤرث ، ولكن الرسول (ص) استطاع أن يطهر

قلوبهم من الضغائن والأحقاد فى المدينة وحدها حيث كان نفوذه قد بلغ حد الكمال .

وتقول الرواية العربيــة إن موجة الفتوحات التى وقعت فى أيام أبى بكر وعمر حملت معها القبائل العربية إلى أنحاء العالم القديم ، فنزلت « مضر » بالبصرة ، وسكنت حمير الكوفة ، وأصبح بنو مضر هم العنصر السائد فى دمشق وفلسطين ، واستقر فرع من حمير فى القسم الشمالى من الشام ، وشمالى بلاد العرب أما الولايات الشرقيــة ومصر وأفريقيا فقد انتشر فيها — كثيراً أو قليلا — بطون من هاتين القبيلتين ؛ ولكنهم كانوا — أينما رحلوا — يحملون فى أفئدتهم الضغائن والتنابذ القديمين . ولا مرية أن « عمر » العظيم استطاع أن يكبت تلك العواطف المتأججة بيد من حديد ، كما أن العمل الذى كان ملقى على كواهلهم كشعب فاتح — وهو حفظ النفس وضرورة التوسع — لم يكن ليسمح لهم قط بإظهار أية عاطفة غير عاطفة المنافسة الشريفة . ولو قدّر «لعلى» أن يخلف « عمر » بهدوء واطمئنان لأمكنــه على الأرجح أن يوحد هاتين القبيلتين و يجعل منهما شــعباً متجانساً تحدوه نزعة واحدة ، ولكن الأمويين لم يلبثوا — فى عهد « عثمان » أن أوغروا فى الصدور مكنون الضغائن القديمة التى كان يشتد سعيرها فى الأندلس وصقلية وصحارى أفريقيا ، وسهول خراسان وقفار كابول . ويؤيد لنا التاريخ فيما بعد أن هذا التباغض المحزن لم يكن وخيم العاقبة على مثيريه فحسب ، بل كان له أعظم الأثر أيضاً على مستقبل الشعب العربى ، وعلى تقرير مصير العناصر الرومانية والجرمانية التى اشتبكت معهم فى القتال .

ومن المحزن حقًّا أن العرب لم يدركوا وقتئذ حراجة موقفهم ، بل راحوا يضعون العقبات فى سبيل نجاحهم فى اللحظة التى طأطأ الغرب لهم هامته ، وخر ساجداً تحت أقدامهم . ومهما يكن من شىء فإن تفاقم تلك الأحقاد أدّى فى الواقع إلى ضياع أهم جزء من إمبراطوريتهم .

سياسة معاوية

كان معاوية يعتمد فى تأييد سلطانه على مؤازرة المضريين ، ولكنه برغم ذلك بقى محافظاً على الموازنة بين كفتى هاتين القبيلتين ، أما فى زمن خلفائه فقد تبدل الحال تماماً وأصبحت القبيلة التى تتغلب ردحاً من الزمن تسوم أختها صنوف الاضطهاد . ومما يسجل للأمويين بالفخر والإعجاب ، أنهم ظلوا محافظين على ولائهم للخليفة الأموى عماد بيتهم ورئيس قبيلتهم ، كذلك كان جنود الشام قد عرفوا بإخلاصهم له . وإن ننسى لا ننسى تلك الظاهرة التى بدت واضحة جلية فى تلك الأثناء ، وهى أن المتدينين والمفكرين انسحبوا من ميدان السياسة وقصروا همهم على دراسة اللغة والآداب والشريعة التى كانت قد وضعت أسسها الأولى فى ذلك الحين ، واطمأنوا إلى حياتهم الجديدة فى تلك العزلة الاختيارية . أما الخوارج الذين ثاروا على « على بن أبى طالب » فقد انهزموا فى موقعة النهروان ، والتجأوا إلى ولاية الإحساء وأواسط بلاد العرب ذات المسالك الوعرة وأخذوا يبشرون بمبادئهم[1] المغالية ذات الصبغة القاتمة ، وهكذا أصبحوا بكثرة عددهم واستهتارهم بالحياة وإخلاصهم وتفانيهم لمبدئهم عاملا مخيفاً يقلق مضجع حكومة الشام ، فثاروا على معاوية واحتلوا كلدة ، وهددوا بغزو العراق ، ولكنهم برغم ذلك منيوا بشر هزيمة واضطروا إلى الاعتصام ثانية فى معاقلهم فى الصحراء .

الفتوح فى أفريقية

وما أن وطد معاوية دعائم سلطانه فى دمشق حتى حول اهتمامه شطر أفريقيا . ويلاحظ أن العرب إنما يقصدون بأفريقيا البلاد الشمالية الواقعة فيما وراء حدود مصر ، ويقسمونها إلى ثلاثة أقسام[2] :

---

(١) كان هؤلاء يعترفون بالخليفتين الأولين فحسب ويذهبون إلى أن الأمويين مشركون ويقولون بضرورة انتخاب الإمام من بين المسلمين دون التقيد بأسرة أو قبيلة وإجراء حكم الله ويرون من عداهم مقضيا عليه بالنار ، ويحرمون الملاهى على أنواعها وعقاب من يتعاطاها الموت الزؤام .

(٢) يقال إن أحد ملوك الحميريين كان قد توغل فى شمالى أفريقا حيث أسس مستعمرات سكنها بعض القحطانيين ولهذا سمى أفريقيوس أو أفريقانيوس .

(١) بلاد المغرب الأقصى الممتدة من سواحل المحيط الأطلسى إلى تلمسان جنوباً حتى الصحراء الكبرى .

(٢) المغرب الأدنى ويشتمل على البلاد الواقعة بين وهران وبجاية .

(٣) سهول أفريقيا الممتدة من تخوم الجزائر الحالية شرقاً إلى حدود مصر .

كذلك كان يسكن أفريقيا الشمالية غربى صحراء ليبيا ، وشمالى السودان ، شعب ينتسب إلى الأصل السامى ، كما أن كثيراً من العشائر الضاربة فى سهول تلك المنطقة وتلالها ترجع فى نسبتها إلى قبيلتى حمير ومضر العربيتين ، وكانوا على أكبر جانب من الشجاعة وشدة البأس وحب الاستقلال المعروف عن أهل الصحراء . وقد احتل العرب تلك الولاية لأول مرة فى عهد « عمر بن الخطاب » ثم توغلوا فى هضابها فى زمن « عثمان بن عفان » حتى وصلوا إلى برقة .

وعلى أثر هزيمة « غريقريوس » فى المعركة الفاصلة التى دارت رحاها على مقربة من « قرطجنة » القديمة ، تعهد الروم بأن يدفعوا جزية سنوية للعرب الذين وافقوا هم أيضا على الانسحاب تاركين حاميتين صغيرتين فى « زويلة » و « برقة » وما هى إلا برهة من الزمن حتى دخل الروم ثانية تلك البلاد ، غير أن جشعهم وابتزازهم الأموال بلغا درجة لم يحتملها الأهلون ، فهبو ايستنجدون بالعرب لإنقاذهم من نير الدولة البيزنطية ، وسرعان ما لبى معاوية نداءهم وأرسل جيشاً لجباً برئاسة عقبة بن نافع المشهور ، فأجلاهم عن البلاد وألحقها بالإمبراطورية العربية .

تشييد مدينة القيروان

وفى عام ٥٠ هـ شيد عقبة فى جنوبى تونس مدينة عسكرية باسم «القيروان» وجعلها قاعدة لصد هجمات البربر وحماية جنود العرب من غزو الروم ، وبذلك أصبحت الغابة الكثيفة التى كانت مرتعاً خصيباً للوحوش الضارية والزحافات السامة أرضا مستوية ، تقوم فوقها تلك المدينة الزاهرة التى لا نزال نشاهد آثارها حتى اليوم .

وفى عام ٥٥ هـ بدأ « عقبة » فى زحفه المشهور على الغرب ، فأخذت المدن

تقدم إليه طاعتها الواحدة تلو الأخرى ، بالرغم من مناوشات الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وهكذا ظل يتوغل فى تلك الأصقاع حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، فأثر زحفه المدهش والضربات السريعة التى أنزلها بالروم والبربر تأثيرها المطلوب وبقيت البلاد بعد ذلك تتمتع بنعمة الطمأنينة والعدل . وقد ظل عقبة ، فيما عدا فترة قصيرة استدعاه فيها الخليفة إلى دمشق ، يحكم أفريقيا وملحقاتها الغربية حتى لاقى حتفه عام ٦٥ هـ . وفى تلك السنة انقضّت قبائل البربر الوحشية من قمم الجبال وتلال الأطلس على جنود العرب القليلى العدد فى معسكراتهم فى القيروان ، ويؤكد لنا المؤرخون أنه ليس ثمة شعب أو عنصر يعدل العنصر العربى فى الشجاعة التى أظهرها ، والنشاط الذى أبداه فى خلال الحروب على تلك العناصر الوحشية المحاربة فى شمالى أفريقيا . وقد استطاع العرب بجيشهم القليل العدد والعدد أن يفتحوا بلادا مترامية الأطراف لا يسكنها شعب مسالم بالضرورة كالشعب الهندى إنما يسكنها شعب شرس الطباع معتاد على الحروب والطعان .

مقتل عقبة

أحاط البربر بالعاصمة إحاطة السوار بالمعصم ، بيد أن عقبة لم يكن ممن تفدحهم الخطوب ؛ فكسر غمد سيفه إيذانا منه بالعزم على الموت دون التسليم وهجم مع فرقته الصغيرة على أعدائه هجمة رجل واحد ، ولكن سيوفهم لم تفدهم فتيلا فى تلك المعركة ، إذ لم يلبث العدو أن فتك به وبمعظم جنوده ، وقد عاد من بقى منهم حيا إلى مصر . وهكذا سقطت القيروان ثانية فى أيدى البربر ، وخيّل أن حكم العرب فى أفريقيا قد أفل نجمه إلى الأبد .

الفتوح فى الشرق

وإذا عدنا بالذاكرة على أجنحة الخيال إلى المشرق فى تلك الأثناء لرأينا المهلب بن أبى صفرة يحتل بلاد السند ووادى الهندوس المنخفض . ورأينا العرب أيضا يحوزون النصر تلو النصر فى الأفغان الشرقية : أما الروم الذين انتهزوا فرصة وقوع المنازعات الداخلية وأغاروا على الممتلكات الإسلامية ، فقد منيوا بشر

هزيمة فى عدة مواقع ، وفر الأسطول الرومانى أمام أسطول العرب ، كما أسلمت عدة جزر من جزر الأرخبيل اليونانى .

معاوية يستخلف ابنه يزيد

وتقول لنا الرواية العربية إن « معاوية » بتحريض من « المغيرة بن شعبة » عامله فى البصرة فكر فى مبايعة ابنه « يزيد » بولاية العهد ، وكان يؤازره فى هذه الخطة « زياد بن أبيه » [1] عامله فى العراق وخراسان ، ويقال إن الخليفة استعمل فى إخراج تلك الأمنية إلى حيز الوجود جميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، فرشا بعض العراقيين وأخاف البعض الآخر .

وفى عام ٥١ هـ خرج « معاوية » إلى المدينة ومكة لكى يستوثق من أهل الحجاز ، واستطاع بتهديده وحيلته أن يأخذ البيعة منهم جميعا ما عدا أربعة من مشاهير المسلمين وهم : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير ، إذ أبوا النزول على رأيه رغم الشروط السخية التى عرضها عليهم ، فتقوّت بهم قلوب أهل الحجاز واشتدت عزائمهم ، وقد كان لعبد الله بن الزبير الذى يسميه معاوية « ثعلب قريش » عين ترنو إلى الخلافة أما الباقون فكانوا يبغضون يزيد لهنات ينقمونها عليه .

وفى شهر رجب عام ٦٠ هـ (نيسان ٦٨٠ م) توفى « معاوية » ، ويقال إنه كان أبيض البشرة ، طويل القامة ، متقنا للسياسة ، متأنيا للأمور ، مداريا للناس ، حاذقا ، شجاعا ، سخيا عند الضرورة ؛ ويقول المؤرخون : « إنه كان أول من ألقى الخطبة وهو جالس ، وأول من أدخل الخصيان فى خدمته الخاصة » وكان يقوم بأداء فروض الدين كاملة غير منقوصة ، ولكنه لم يكن ليسمح قط لأى مخلوق أو قانون سماوى أن يتدخل فى تنفيذ مشاريعه أو يحول دون تحقيق مآربه .

وتقول لنا الرواية العربية إنه حالما بويع بالخلافة تخلص من جميع أعدائه

(١) هو ابن أبى سفيان غير الشرعى ، ولهذا سمى « بابن أبيه »

وتفرغ لأمور الدولة التى أخذ يصرفها بحزم ودهاء جديرين بالإعجاب ؛ ويذكر المسعودى جملا من أخلاقه بقوله : « كان إذا صلى الفجر يجلس للقاص حتى يفرغ من قصصه ، ثم يدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشى ، ثم يؤتى بالغداء الأصغر ويتحدث طويلا ، ثم يدخل منزله ؛ وبعدئذ يخرج إلى المسجد فيسند ظهره إلى المقصورة ، ويجلس على الكرسى ويقوم الأحداث فيتقدم إليه الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له يعرضون عليه شكواهم ، حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ؛ ثم يقول ائذنوا للأشراف على قدر منازلهم ، ثم يؤتى بالغداء ويتقدم إليه أصحاب الحوائج ، ثم يرفع الغداء ويدخل منزله حتى ينادى بالظهر فيخرج فيصلى ، ثم يجلس فيأذن لخاصة الخاصة ويدخل إليه وزراؤه فيؤامرونه فيما احتاجوا إليه ، ويجلس إلى العصر ؛ ثم يدخل منزله حتى ينادى بالعشاء الآخرة فيخرج فيصلى ، ثم يؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية ، ويستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامهم والعجم وملوكها وسياستها ؛ ثم يدخل فينام » . وقد كان عهد معاوية على الجملة عهداً زاهراً ، تمتعت فيه البلاد بنعمة الطمأنينة والعدل ، وأصابت نجاحاً عظيما فى الخارج .

معاصر معاوية فى القسطنطينية

وكان قسطنطين الثانى الذى اغتال أخاه ثيودسيوس على رأس الإمبراطورية الرومانية فى أول عهد معاوية ، غير أنه تنازل عن الحكم لابنه قسطنطين الرابع .

يزيد الأول شعبان ٦١ هـ نيسان ٦٨٠ م

وعلى أثر وفاة معاوية بويع « يزيد » بمقتضى وصية والده . وباعتلاء يزيد عرش الخلافة تقوضت مبادئ الجمهورية القاضية باختيار أمير المؤمنين بالشورى وهى المبادئ التى افتتن بها العرب افتتاناً جعلهم يتجاهلون حق أسرة الرسول فى زعامة الإسلام الروحية والدنيوية ، ومنذ ذلك الحين أخذ الخليفة يوصى لمن يتولى بعده بالخلافة ضامنا تنفيذ وصيته بأخذ البيعة من الجنود والخاصة فى حياته . وقد قال الإمام الحسن البصرى الذى عاش فى نهاية ذلك العصر ما يلى : « لقد ارتبكت أمور المسلمين على يد رجلين هما : عمرو بن العاص الذى أشار على

معاوية برفع المصاحف على أسنة الرماح ، والآخر هو المغيرة الذى أشار على معاوية بأخذ البيعة لابنه « يزيد » ، ولولا ذلك لظل أهل الشورى ينصبون من يرونه أهلا لها إلى يوم القيامة ، إذ أن الخلفاء الذين جاءوا بعد معاوية اتهجوا سبيله فى أخذ البيعة على الناس لأولادهم » . وقد كان يزيد شديد الغواية ، فاسد الطبع ، عسوفا ظالماً ، سادراً فى لهوه ، صاحب طرب ومنادمة على الشراب .

وقد كان الصلح المعقود بين الحسن ومعاوية ينص على الاعتراف بحق الحسين فى الخلافة ، ولكن معاوية نقض العهد وأخذ لابنه البيعة لخنق الحسين ، وزاد فى حنقه فساد يزيد فلم يعترف قط بطاغية الشام ، ولهذا عند ما طلب إليه أهل الكوفة أن يعاونهم على رفع نير بنى أمية وينقذهم من استبدادهم لبى طلبهم فى الحال ، وباستثناء عبد الله بن الزبير الذى شجعه على المسير كيما يقصيه عن طريقه ويخلو له الجو من بعده ، فقد حاول جميع أصدقائه أن يثنوه عن عزمه ونصحوه ألا يثق بمواعيد العراقيين ، الذين وإن كانوا متحابين بالحماسة وشدة البأس إلا أنهم قوم قلّب يعوزهم الثبات والحزم ، فبينما تراهم يوماً شديدى الحماسة لعقيدة يدينون بها أو متفانين فى الإخلاص لشخص يعضدونه ، إذ بهم فى اليوم التالى قد أعرضوا عن العقيدة التى آمنوا بها وخذلوا الشخص الذى أجمعوا على نصرته بالأمس ؛ غير أن التأكيدات التى وردت إليه بأن أهل العراق قد أجمعوا على مبايعته ، وأنهم سوف يهبّون لنصرته متى وصل إليهم ، حملته على الشخوص إلى الكوفة فاجتاز الصحراء دون أن يلقى أية مقاومة ؛ وكان يصحبه جماعة من أهل بيته وأصحابه وأتباعه المخلصين وأطفاله ونسائه ؛ فلما اقترب من حدود العراق لم ير أثراً لجيش الكوفة الذى وعده بالموت دونه ، فروّع لتلك المفاجأة ، ودخلت على قلبه الوحشة من مظهر البلد العدائى ، وشم فى الجو رائحة الغدر والخيانة ، فعسكر مع جماعته الصغيرة فى الموقع المسمى الآن « بكر بلاء » على مقربة من الشاطئ الغربى للفرات ؛ ولم يلبث أن تكشف له الغدر ،

مذبحة كربلاء

وحسرت له الخديعة لثامها عن جيش يزيد تحت إمرة عبيد الله بن زياد بن أبيه . فحاصرت هذه القوة خيام الحسين عدة أيام وسدت عليهم منافذ النجاة كما حالت بين جماعته و بين الماء .

ولكن جنود « عبد الله » لم يجرؤوا بالرغم من كل ذلك على الدنو من الحسين الذى كان قد اقترح على رئيسهم عمر بن سعد ثلاث خصال وهى : إما أن يتركه يرجع إلى المدينة ، أو أن يسيره إلى حدود الترك يقاتلهم حتى يموت ، أو يسيره إلى يزيد[1] ، ولكن أوامر طاغية أمية (ابن زياد) كانت لا تقبل التأويل ، وهى أن يحملوهم إلى الخليفة ليرى رأيه فيهم كمجرمين : ثم عاد « الحسين » فعرض عليهم أن يبقوا على حياة الأطفال الأبرياء والنساء الضعيفات ويقتلوه وحده ، فيضعوا حدًّا لهذا القتال غير المتكافئ ، بيد أن الرحمة لم تتسع لها قلوبهم ؛ وعندئذ ألح على أصحابه أن يتركوه وحده ويلوذوا بالفرار ، فرفضوا أن يتخلوا عنه قائلين : « لا خير فى الحياة بعدك » ؛ كذلك أحجم أحد رؤساء جيش « يزيد » عن الاشتراك فى القتال عند ما تيقن أن الدائرة ستدور ولا ريب على ابن بنت الرسول ، فترك الجيش فى ٣٠ من أتباعه .

وكان « الحسين » فى كل التحام يعقد له النصر على أعدائه ، غير أن النبال كانت تحصد أصحابه من بعيد فيسقط الواحد تلو الآخر حتى قتلوا جميعاً إلا ابن بنت الرسول الذى تحامل على نفسه ويمم وجهه شطر النهر ليطفئ ظمأه ، فسددوا إليه السهام ورموه بالنبل ليحولوا بينه وبين الماء . فعاد أدراجه إلى خيمته وأخذ بين يديه ابنه الرضيع فرشقه أحدهم بسهم قضى عليه فى الحال ، وعلى هذا النحو فتكوا بأولاده وأولاد أخيه وهم فى أحضانه ؛ ولما أرهقه الجزع وألفى نفسه وحيداً خائر القوى حيال أعدائه خرج من خيمته ، فناولته إحدى النساء بعض الماء

(١) تجمع الرواة وعلى الأخص ابن الطبرى : أن الحسين لو قدم على يزيد لوجده مبجلا له عارفا بقدره ، ويقال إنه لما وصله خبر تلك المذبحة لعن « ابن سمية » وترحم على الحسين ، وكان قصره من البكاء عليه كأنه فى مناحة ، ولكن المجرم شمر بن ذى الجوشن هو الذى أوقد النار وضرّاها . (المعرب)

ولكنه ما كاد يرفع الوعاء إلى شفتيه حتى سددوا إليه سهما ملأ فمه دماً ، فرفع يديه إلى السماء يستمطر الرحمة على الأحياء والأموات من جماعته ؛ ثم نهض واقفا صادق البأس ثابت الجنان وحمل عليهم حملة مستميتة ، ففروا من أمامه ، ولكن الضعف كان قد بلغ منه منتهاه من كثرة ما نزف من دمه فسقط على الأرض ، وفى الحال هجموا عليه واحتزوا رأسه ، ثم حملوه إلى قلعة الكوفة ، فأقبل « عبد الله[1] » عليه ينكثه بالقضيب فقال له أحد الحاضرين : « ارفع قضيبك فطال والله ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع فمه على فمه يلثمه » . ويقول المؤرخ الإنجليزى الأشهر « جيبون » : « إن مأساة الحسين المروعة بالرغم من تقادم عهدها وتباين موطنها لا بد أن تثير العطف والحنان فى نفس أقل القراء إحساساً وأقساهم قلباً » . والآن وقد وقفنا على تفاصيل تلك المذبحة النكراء ، نستطيع أن نفهم مبلغ الحزن المض الذى يشجو قلوب شيعة علىّ عند إحياء ذكرى استشهاد الحسين .

وهكذا فاضت نفس من أزكى النفوس فى ذلك العصر ، وكادت تنقرض بموته أفراد أسرة النبى الذكور — شيباً وشبانا — لولا هذا الطفل المريض الذى أنقذته « زينب » أخت الحسين من المذبحة العامة ، وقد كان اسمه « علياً » ، ولقب فيما بعد « بزين العابدين » ، وهو ابن الحسين من زوجه بنت « يزدجرد » آخر ملوك الفرس الساسانيين ، وفى شخصه خلدت أسرة النبى ، كما كان فوق ذلك يمثل المطالبين بعرش الفرس من آل ساسان ؛ ويقال إن عبد الله كان قد فكر فى قتله ، غير أن شيئاً فى نظرات « زينب » وعزمها على الموت مع ابن أخيها ألقى الرعب فى قلب ذلك الطاغية الغشوم فأحجم عن قصده .

بعث « زياد » نساء « الحسين » و « على الصغير » إلى دمشق تحوطهم فرقة

---

(١) يقول المسعودى : إن « يزيد » هو الذى أقبل ينكث الرأس بالقضيب ، وإن « أبا بردة الأسلمى » هو الذى نهاه عن ذلك . (المعرب)

من الجنود حاملين رءوس الشهداء على أسنة الرماح ، وعند ما انتهوا إلى عاصمة الخلافة جلست بنات الرسول فى أثوابهن الممزقة تحت أسوار قصر الخليفة يندبن ويعولن على نحو ما تفعل النساء العربيات إذا ما فجعن بعزيز لديهن ، فهلع قلب « يزيد » وأرجعهن فى الحال إلى المدينة .

لقد هزت مذبحة كربلاء العالم الإسلامى هزاً عنيفاً وروعته بمأساته الدامية ، كما خلقت فى فارس شعورا وطنيا ساعد أحفاد العباس فيما بعد على استغلاله لمصلحتهم الشخصية وتقويض دعائم الدولة الأموية . وكان السخط قد بلغ منتهاه فى المدينة ، حتى اضطر الخليفة إلى أن يولى على أهلها عاملا خاصاً لتهدئة خواطرهم ، ويحملهم على إرسال وفد منهم إلى « دمشق » لكى يتوسط فى إنصاف أسرة الحسين ، بيد أن الوفد مع ذلك رجع ساخطا على « يزيد » للحياة التى كان يحياها ، والمعاملة التى لاقاها على يديه ، فهاج هائج أهل المدينة لفشل وساطتهم ، وأعلنوا خلع يزيد وطردوا عامله ؛ فأثارت تلك الأخبار غضب الخليفة الذى أرسل إليهم فى الحال جيشا من أهل الشام بقيادة « مسلم بن عقبة » لتأديبهم .

موقعة الحرة

وما كاد الجيش الأموى يصل إلى الموضع المعروف « بالحرة » حتى خرج إليه أهل المدينة ، ودارت بين الفريقين معركة هائلة أسفرت عن هزيمة أهل المدينة ، وقتل زهرة شباب الأنصار والمهاجرين ، وانتهاك حرمة مأوى الرسول ومهبط الوحى . وهكذا قدر للذين عضدوا رسولهم فى وقت الشدة أن يتعرضوا لأشنع تنكيل لا يعرف التاريخ له مثيلا . ويعلق مؤرخ أوربى على هذا الحادث بقوله : إن تأثير هذا الحادث على العالم الإسلامى كان هائلا مروعاً ، فكأن الأمويين قد أرادوا أن يوفوا ما عليهم من دين حينما عاملهم الرسول وجيشه بالرحمة والعطف [1] . فشردوا وقتلوا خيرة شباب المدينة ورجالها الميامين ، كما

---

(١) يروى أن « مسلم » لما فرغ من القتال بعث برءوس أهل المدينة إلى يزيد فلما ألقيت بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبعرى يوم أحد : =

أجبروا من تبقى منهم على مبايعة يزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ، فمن امتنع عن ذلك وصمه بالكى على رقبته ، ولم يستثن من هذا العار غير على الثانى بن الحسين وعلى حفيد العباس . وفى تلك الموقعة هدمت معظم المدارس والمنشآت العامة ، ودخلت شبه جزيرة العرب فى عهد مظلم شديد الحلكة ، حتى قيض لها « جعفر الصادق » بعد بضع سنوات فبعث فى المدينة روح الحركة العلمية التى كانت قد ازدهرت فى عهد «على بن أبى طالب» ؛ و برغم انتعاش تلك الحركة بقيت المدينة من شبه الجزيرة العربية كالواحة من الصحراء التى تحيطها من جهاتها الأربع الكآبة الموحشة والظلام الدامس ، ولم تسترد المدينة قط عهدها الغابر حتى أصبحت فى عصر بنى أمية بلدة الماضى السحيق ؛ و يقال إن المنصور ثانى الخلفاء العباسيين حينما زارها احتاج إلى دليل لكى يرشده إلى آثار أبطالها الأقدمين .

حصار مكة الأول

ولما فرغ « مسلم بن عقبة » من صب جام غضبه على أهل المدينة مضى إلى مكة لمحاربة « عبد الله بن الزبير » ، الذى كان أهل المدينة قد بايعوه بالخلافة ، فأحاطها بجيشه ونصب عليها المجانيق ، غير أن موت يزيد حمله على رفع الحصار والعودة إلى دمشق .

زوال الخلافة عن آل حرب

استخلف « يزيد » ابنه معاوية ، وكان شاباً وديع النفس ، يمقت أعمال العنف ، فاعتزل الحياة العامة بعد حكم أشهر قلائل ، وتوفى وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ؛ ومنهم من يقول : إنه مات مسموماً . و بوفاة معاوية الثانى انتهى فرع أبى سفيان . وكان « عبد الله بن الزبير » قد بويع بالخلافة على أثر وفاة يزيد فى الحجاز والعراق وخراسان ؛ ولو كان قد غادر مكة وسارع إلى الشام لاستطاع أن يقوض دعائم تلك الأسرة و يستخلص الخلافة لنفسه ، ولكنه بدلا من ذلك اكتفى بمكة وحدها فأتاح للأمويين فرصة ليوحدوا كلمتهم و يلموا شعثهم .

= ليت أشياخى ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا واستهلوا فرحا واقالوا ليزيد لا فشل